أثر تراث العرب

الأدبي والنقدي

في

الأدب والنقد عند الغرب

يحلو لكثير من الكتاب ودارسي الأدب أن يقرنوا ازدهار الأدب والنقد عند العرب بالنهضة الأدبية والنقدية عند الغرب . ومن الدارسين من يرجع النهضة الأدبية برمتها إلى الغرب ، وكأن الغرب هو الأساس ، وكأنه لم تكن للعرب نهضة أدبية ، ولم يكن لها تراث أدبي ، وعجيب الأمر أن تتناقل هذه الآراء وشيئا فشيئا يُظن أنها حقيقة وتخرج الأجيال من بعدنا لتسلم بها وتؤمن، والحقيقة أن العرب هم الأصل ، وهم الأساس في نهضة الحركة الأدبية والنقدية عند الغرب .

إننا لا ندعي شيئا ليس لنا ، ولكنها الحقيقة التي لا مراء فيها ، فضوء الشمس لا ينكره مبصر ، وحضارة العرب لا ينكرها إلا جاحد أو شانيء ، فقد كانت حضارة شاملة في كل مجالات الحياة بما فيها الأدب (شعره ونثره) والنقد ودعنا ندلل على صدق ما نقول فقد كان للحضارة الإسلامية فضل الذيوع والانتشار والتأثير فيما حولها منذ القرن العاشر الميلادي ولمدة تزيد عن ثمانية قرون استمر فيها حكم العرب للأندلس فسارت النهضة في ركاب الفاتحين منذ عبر طارق ابن زياد وجنوده المحيط إلى شبه جزيرة أيبيريا ليؤسس دولة إسلامية عريقة ، أثرت في الحياة الأندلسية ،والأوروبية في كافة فروع الحضارة الإنسانية حتى صارت الأندلس مزارا ومنهلا عذبا يفد إليه طلاب العلم والمعرفة من كل أنحاء أوروبا وينهلون من معينه ، كما حكم المسلمون صقلية طوال قرنين من الزمان، صارت خلالهما دول مثل فرنسا وإيطاليا وغيرها مجتمعاً متمدينا على غرار الحضارة والثقافة الإسلامية، وكما تقول :"لوثي لوبيث بارالت" "من الظلم البين ألا نقبل القول بأن إسبانيا الإسلامية كانت تشكل بالفعل معجزة ثقافية حقيقية في إطار القارة الأوروبية في القرون الوسطى، وبفضل العرب المسلمين، لم تبلغ أية أمة

أوروبية أخرى ما بلغته شبه الجزيرة الأيبيرية من تقدم العلوم والفنون في تلك العصور التي كانت وسيطة أو مظلمة بالنسبة لقارة أوروبا لكنها لم تكن على الإطلاق بالنسبة إلى الأندلس" (١).

وكان من نتيجة ذلك أن تأثر الغربيون بما أبدع العرب.

وأمثلة هذا التأثر كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر.

التأثر الغربي بنظرية النظم التي وضع أسسها شيخ العربية عبد القاهر الجرجاني.

في هذه النظرية يبين الجرجاني تعلق الكلم بعضه ببعض، وترتيب المعاني داخل النفس، وعلاقة المعنى والأسلوب بعلم النحو، وما يميز القول من خيال واستعارات وتقديم أو تأخير، وما فيه من ذكر أو حذف. يقول: "وهل يقع في وهم وإنْ جَهَدَ، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن يُنظَر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخفّ، وامتزاجها أحسن، ومما يَكُد اللسان أبعد؟ وهل تجد أحداً يقول: "هذه اللفظة فصيحة" إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: "لفظة متمكنة ومقبولة"وفي خلافه: قلقة، ونابية، ومستكرهة"، إلا وغرضهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنُبُوّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقاً للتالية في مؤدّاها؟ وهل تشكّ إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [سورة هود:٤٤]، فتجلّى لك منها الإعجاز، ويَهرك الذي ترى وتسمع - أنك لم تجد

ما وجدت من المزيّة الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأنْ لم يعرض لها الحسنُ والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأنّ الفضل تناتجَ ما بينها وحصَل من مجموعها؟ إن شككت، فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أُخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدّت من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل: "أَبْلَعِي"، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أنّ مبدأ العظمة في أنْ نوديت الأرض، ثم أُمرت، ثم في أنْ كان النداء "بيا" دون "أيّ"، نحو "يا أيتها الأرض"، ثم إضافة "الماء" إلى "الكاف"، دون أن يقال: "ابلعي الماء"، ثم أنْ أُتبع نداء الأرض وأمْرها بما هو من شأنها، نداءَ السماء وأمْرَها كذلك بما يخصّها، ثم أنْ قيل: "وغيض الماء"، فجاء الفعل على صيغة "فُعل" الدالة على أنه لم يَغِضْ إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: "وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ"، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو: "استوت على الجودي"، ثم إضمار "السفينة" قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة؟ أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتُحصرك عند تصورها هيبة تحبط بالنفس من أقطارها - تعلُّقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الائتساق العجيب؟ فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً، أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تعلُّق له بصريح اللفظ.

وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتُوحشك في موضع آخر، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة:

تلفّتُ نحو الحيّ حتى وجدتني

وجِعتُ من الإصغاء ليتاً وأخْدَعا

وبيت البحتري:

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع اخدعي

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يادهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خُرُقاكْ

فتجد لها من الثّقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الرَّوْح والخفة ومن الإيناس والبهجة".

ويقول: "وليس المقصود بنظم الألفاظ مجرّد تتابعها في النطق كما هي الحال في نظم الحروف، إذن لاستوى الناس كلّهم في العلم بحسن النظم ورداءته؛ لأنهم جميعاً يُحسّون بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً. ولكنّ المقصود به تناسق دلالاتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل. وإذن فإنّ الاعتبار في النظم هو للمعاني وليس للألفاظ؛ بل إنّ الألفاظ في ذلك تبَعٌ للمعاني، فهي تترتّب تلقائياً بحسَب الترتيب الذي تنشأ عليه المعاني في النفس، ولا يحتاج المتكلّم أن يفكّر مرّتين: مرة في ترتيب المعاني، وأخرى في ترتيب الألفاظ، وإنّما ينحصر تفكيره في المعنى؛ فإذا ترتّبت المعاني جاءت الألفاظ مرتّبة على نسقها من غير استئناف نظر جديد. "فلا يُتصوَّر أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه،

ولا أن تتوخّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخّى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك. فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقَفَوْت بها آثارها وأنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علمٌ بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق".

وهذا الذي قال به عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم كان الأساس الذي بنى عليه الغربيون نهضتهم في الألسنيات ، إذ تجد صدى هذه النظرية ماثلا في الأسلوبية والبنيوية والتفكيكية التي نادى بها علماء الغرب : دي سوسير ، وتشارلز بيرس ، جاك دريدا ، ورولان بارت ، وغيرهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ومن أمثلة التأثر الغربي بأدب العرب ونقدهم :

"الفابولا " التي استمدت عناصرها من كليلة ودمنة .

والفابولا أحد الأجناس الأدبية الأولى للقصة عند الغربيين - وهي أقصوصة شعرية تحمل روح ومعنى الهجاء الاجتماعي- قد ظهرت في فرنسا منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي وحتى أوائل القرن الرابع عشر – على غرار النقد الاجتماعي التي تتضمنه حكايات كليلة ودمنة . يقول "جاستون بارى" أحد أعمدة الأدب المقارن الأوائل عن الفابولا " إنها استمدت عناصرها وروحها من كتاب "كليلة ودمنة" الفارسي الأصل" والذي ترجمه ابن المقفع، والذي قامت فكرته الأساسية على الحكم والفلسفات التي تقال على ألسنة الحيوان ،وواضح أن الفابولا اعتمدت على الأصل الذي ترجمه ابن المقفع .

كما تأثر الشاعر الفرنسي لافونتين بترجمة (كليلة ودمنة)، وظهر هذا الأثر فيما كتب عن الحيوان ، وحسبك هذا المثال لتأثر الغرب : يلاحظ على هذه القصة (فكرتها وتفاصيلها) أنها تسير على النمط القصصي الموجودة في كتاب "كليلة ودمنة" الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية .

- ومن مظاهر التأثر الغربي قصة (حي بن يقطان)التي رأينا صداها في قصة (روبنسون كروزو) .

وقصة (حي بن يقظان) في مضمونها : يروي ابن طفيل أن طفلا صغيرا بلا أب أو أم في جزيرة منعزلة وربته أنثى الظبي، ولكنه استطاع أن يتوصل إلى حقائق الحياة ووجود الله بواسطة عالم متصوف يأتي إلى الجزيرة المنعزلة للتعبد.

وقد ترجمت قصة (حي بن يقظان) إلى اللاتينية والإنجليزية في القرنين الرابع عشر والسابع عشر وراجت في أوروبا رواجا كبيرا ،وألف الغربيون على منوالها ،وتأثر بها الكلاسيكيون،والرومانتيكيون،في الخيال والرمزية،كما ترجمت هذه القصة إلى الفرنسية والروسية.وممن تأثروا بها دانييل ديفو (١٦٦١/ ت.١٧٣١م) الذي ألف "روبنسون كروزو".

وروبنسون كروزو سيرة ذاتية تخيلية ،تحكى عن شاب انعزل في جزيرة ما، وحيدا لمدة طويلة دون أن يقابل أحدا من البشر، ثم بعد عدة سنوات يقابل أحد المتوحشين وعلمه بعض ما وصل إليه الإنسان المتحضر من تقدم فكري وجعله خادمه. وفى نهاية القصة عاد روبنسون كروزو ومعه خادمه إلى أوروبا حيث العالم المتحضر. وهذه القصة تعني للكثيرين حلم الانعزال عن هذا العالم الظالم والحياة في ظل الطبيعة الرحيمة .

والواضح أن هناك تشابهاً ملموساً بين فكرتها وفكرة قصة حي بن يقظان لابن طفيل .

- ومن التأثر الغربي بالتراث العربي أيضا : (الملاحم) إذ تعتبر ملحمة (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالي "دانتي إليجيرى" التي كتبت في القرن الرابع عشر الميلادي صدى للتأثر الغربي ففيها يبدو التأثر الشديد بقصة الإسراء والمعراج وملحمة الكوميديا الإلهية مقسمة إلى ثلاثة أجزاء هي:" الجحيم – والمطهر – والفردوس ".

ويلاحظ في محتواها قصة المعراج الإسلامية بكل تفاصيلها مما يظهر مدى تأثر دانتي بحكاية الإسراء والمعراج.

وقد يتعلل بعض المؤرخين بأن دانتي لم يكن يعرف العربية ، لكن مصادر الأدب تشير إلى وجود مخطوطتين مترجمتين تحكيان قصة المعراج أتيح لدانتي الإطلاع عليهما في إيطاليا ويشير الباحث " محمد عبد السلام كفافي"إلى هذا التأثر الغربي بقوله:"وقد عرف الغرب في العصور الوسطى شيئا عن معراج النبي محمد صلوات الله عليه في ترجمة لاتينية لوصف المعراج. إذ أن الغرب كان في العصور الوسطى .

على اتصال وثيق بالثقافة الإسلامية ،وكان علماء أوروبا يسعون للتزود من مناهل تلك الثقافة"(٣).

- كما وجدت مقامات الحريري ، وبديع الزمان الهمذاني ، وحكايات ألف ليلة وليلة طريقها إلى الأدب الغربي ، وظهر التأثر بها في الفكرة والأسلوب وما تحمل من طرافة وأخيلة وصور جمالية .

وحتى لا نتهم بالتعصب فإن التأثير والتأثر أمر متبادل بين الآداب واللغات جميعا ، وكما أعطى أدبنا وتراثنا العربي وأثر في ثقافة وحضارة الغرب ، فقد أخذ وتأثر برياح التغير والتطور الغربي وظهر ذلك في أمور عدة منها .

- **تيارات الأدب ومدارسه ممثلة في :**
  - التيار الكلاسيكي
  - التيار الرومانسي
  - التيار الواقعي .
  - الرمزية
  - البرناسية .

وعندما تقدمت الألسنيات وما رأيناه من نتاج عربي ظهر التأثر العربي بالغرب ملموسا **في تيارات النقد ممثلة في :**

- المنهج الأسلوبي.
- المنهج البنيوي.
- المنهج التفكيكي.

وهذا التأثير والتأثر من ظواهر صحة ومرونة تراثنا الأدبي والنقدي ودليل مرونته وطواعيته وقابليته للتطور واستيعاب مقتضيات وتقنيات الحضارة وتطور العصر، **يقول الباحث عامر رضا** : "إن تلاقي الثقافات، واحتضان بعضها لبعض مظهر طبيعي وصحي للثقافة الإنسانية ، و يمكن الإشارة إلى حركتي التأثير والتأثر بين الثقافتين العربية والغربية، على مر الحقب والمراحل التاريخية، وداخل هاتين الثقافتين أيضا كانت هناك على الدوام تيارات أدبية تنتقل من بلد إلى آخر، على

الرغم من خصوصية كل بلد،و النماذج السابقة تبين أن عملية التأثر بالآخر عملية طبيعية لتطوير عملية الإبداع، وتنويعها، وفي هذا الإطار ننظر إلى تأثر الأدباء والشعراء العرب بالغرب.

إن التأثر بالآخر أمر لا مفر منه اليوم، شئنا أم أبينا إننا اليوم أحوج ما نكون إلى الإبداع في المجالات كافة، وهذا لن يكون إلا بالاستفادة من إنجازات الآخر الذي سبقنا أن نتعايش معه ليتم فسح المجال لنا للمشاركة في التطور الإنساني، فنكون أبناء عصرنا فاعلين في حضارته من خلال (التسامح والتفاعل الإيجابي) من رؤية متوازنة للذات والآخر،ولاشك أن التسامح يحتاج إلى نضج فكري يقوم على التأمل والحوار البناء،و الدائم بين الذات والآخر بعيدا عن العقد النفسية، فحوار الثقافات هو الطريق الوحيدة التي تؤدي إلى المحافظة على التعايش الثقافي في العالم" (٤)

الهوامش

١- ماجدة عبود ، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٠ .

٢- الأبعاد الفلسفية في قصة حي بن يقظان (wayback machine)موقع .

٣- محمد عبد السلام كفافي ، دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ط١ ١٩٧١ م ص ١٧٩.

٤- عامر رضا ، مقال (تجليات التأثير بين الأدبين العربي والغربي قديما وحديثا) ، مؤتمر: العلاقة مع الغرب من منظور الدراسات الإنسانية المنظم من طرف كلية الآداب / جامعة اليرموك ن المنعقد في ٧/٨/٢٠٠٧ الأردن .

٥- موقع إسلاميات الإليكتروني.